الحنين إلى الوطن في روايات بشرى أبو شرار... رواية "دورا" أنموذجا

Homesickness in the novels of Bushra Abu Sharar "Dora" Novel as sample

Bushra Yasmin Hashmi
PhD Scholar, Department of Literature
Arabic Faculty, International Islamic University, Islamabad
E-mail: bushra.hashmi@iiu.edu.pk Orcid: https://orcid.org/0000-0001-9131-0554

Dr. Abdul Mujeeb Bassam
Assistant Professor, Department of Literature
Arabic Faculty, International Islamic University, Islamabad
E-mail: abdul.mujeeb@iiu.edu.pk Orcid: https://orcid.org/0000-0002-3493-4237

Abstract

Bushra Muhammad Abu Sharar, the famous Palestinian writer and novelist, wrote her novel "Dora" longing for her homeland, Palestine, when she resided in Alexandria. These circumstances caused her to migrate in order to protect herself and her family by leaving her home, belongings, relatives, and homeland, so what can her feelings and we express about her! Indeed, no one can describe that except for those who lived through these events.

Strangers living in a big city and the capital (Cairo) coming from their places of living that were made up of villages and rural areas, but they are living in conflict in the city that is foreign to them, or we read about old people who yearn for earlier stages in which they lived. The same is the case with Dora's novel, which we will talk about in this article.

***Keywords**: Bushra, Palestine, Novels, Short Stories, Homeland, Homesickness, Struggles.*

مقدمة:

الرواية سجلّ العرب في العصر الحديث، فالروايات تتحدث دائماً عن المجتمعات والحياة الإنسانية، ولا تكاد تخلو أي رواية عربية أو غربية من مشاعر الحنين أو الغربة والشوق والألم، وذلك لأن أي إنصات أو إصغاء أو بحث في أية رواية نقرؤها نتناول فيها أحد جوانب هذا الشعور المركب (الغربة والشوق والحنين)، ويمكن أن نجده بسهولة ويسر حتى عند أولئك الذين لم يغادروا دولهم وبلدانهم أبداً. فعلى سبيل المثال، من المعروف لدى الأدباء أن الكاتب الكبير والأديب الشهير: نجيب محفوظ الروائي العربي المصري لم يغادر القاهرة، حتى أنه حين فاز بجائزة

نوبل، أوكل لأحد أصدقائه أن يقرأ كلمته أمام الأكاديمية السويدية، وأوكل ابنته للذهاب لتسليم الجائزة، ولكننا حين نصغي بعمق إلى رواياته فإننا نجد الغربة والحنين زاويتين في مجموعة مهمة من أعماله الأدبية الروائية، التي يوثق في معظمها لمدينة القاهرة بكل مراحلها وأزمنتها (الفاطمية، المملوكية، القديمة، الحديثة).

نقرأ مثلا عن غرباء يعيشون في المدينة الكبيرة والعاصمة (القاهرة) قادمين من أماكن معيشتهم التي كانت مكونةً من قرى وأرياف، ولكنهم يعيشون صراعاً في المدينة الغريبة عليهم، أو نقرأ عن كبار في العمر يحنون إلى مراحل سابقة كانت فيها الحال غير الحال.

وهكذا هي الحال أيضاً في رواية "زينب" لمحمد حسين هيكل التي صُنفت على أنها أول رواية عربية مطبوعة، تدور جميع أحداثها تقريباً حول الحنين إلى الريف المصري بكل ما فيه من بساطة وعشق وصبابة، وقد كتب هيكل الرواية أثناء إقامته في باريس، كأنه يبث من خلالها آلامه وهمومه. وهكذا هي الحال مع رواية "دورا" التي سنتناول الحديث عنها في هذا البحث.

بشرى محمد أبو شرار الكاتبة المشهورة والروائية المجيدة الفلسطينية كتبت روايتها: "دورا" حنيناً إلى وطنها فلسطين عندما أقامت في الإسكندرية، وجميع الروايات التي كتبتها بشرى أو أغلبها تتحدث عن الوطن والحنين إليه، ونحن لا تخفى علينا حال فلسطين وحال أهلها ومصاب غزة ومعاناة الأباة من الرجال، والنساء، والشيوخ، والأطفال فيها، والتي ترغم الإنسان في مثل هذه الظروف على الهجرة.

وقبل أن نبدأ بعرض الحنين إلى الوطن في رواية "دورا" لبشرى محمد أبو شرار يُستحسن أن نتحدث عن حياتها وشخصيتها.

❖ المبحث الأول: مولد الكاتبة وحياتها الثقافية:

ولادتها ونشأتها:

ولدت الكاتبة بشرى محمد أبو شرار في ربيع عام ١٩٥٨م، في مدينة غزة، حيث كانت هذه المدينة شاهدة على قدوم هذه الكاتبة الشهيرة في هذا الكون، كانت الكاتبة بشرى هي

الابنة الثانية بعد أختها الكبرى، وبعدها جاء لأمها ست من البنات، وثلاثة من الصبيان، الكاتبة بشرى هي أخت الكاتب الشهير ماجد أبو شرار من أبيه.

شارك والد بشرى في الثورة الفلسطينية عام ١٩٣٦م، ضد المحتل الإنجليزي، وكان الولد الوحيد لأمه، ولكنه كان يتتبع أثر الثوار دوما من حيفا إلى صفد، إلى عكا، إلى أن حُكم عليه من جانب الإنجليز بالنفي إلى (عوج حفير) من صحراء النقب، وبعدها ثار على ملك الأردن عبد الله الأول مع قيام الحركات الثورية في ربوع الوطن العربي، وحكم الملك بإطلاق النار عليه أينما وُجد ... ثم جاء لاجئاً سياسياً على الحكومة المصرية لمدة عام، وعاش في سراي المحكمة المصرية في غزة، ومن بعدها أقام في تلك المدينة التي وُلدت بشرى وقضت فيها طفولتها وصباها، وتعود أصول بشرى إلى بلدة دورا في الخليل.

الحياة الثقافية للكاتبة:

أنهت بشرى تعليمها ودراستها الثانوية في مدرسة الشهيد مصطفى حافظ للبنات. ثم انتقلت وسافرت إلى جمهورية مصر العربية، وأكملت تعليمها، حيث حصلت على ليسانس في الحقوق من جامعة الإسكندرية، ثم تزوجت برجل مصري، وأقامت في مصر وعملت في المحاماة.

الجنسيات التي تحملها الكاتبة:

تحمل بشرى أبو شرار ثلاث جنسيات عربية: (فلسطينية، ومصرية، وأردنية)، وهذا الأمر جلب لها فرصة كبيرة للحركة والسفر وتعدد المكان في رواياتها، أما الجنسية الفلسطينية فقد ولدت في غزة من الزوجة الثانية لوالدها، أما الجنسية الأردنية فقد أخذتها من عائلتها في مدينتها الأصل (دورا)، أما المصرية فقد حصلت عليها من زواجها برجل مصري.

الثقافة الأدبية للكاتبة:

ظهرت وامتازت شخصية الكاتبة بشرى الثقافية في مدرستها، فتقول: "مدرستي كانت النور الأول الذي أضاء لي الطريق نحو المعرفة، كانت لها مكانة القداسة، أركز كل حواسي في حصة الدرس، أحب الكتابة، المعلومة".(١)

وذكرت الروائية بشرى الكاتبة في الحوار الذي دار بينها وبين الباحثة عبر موقع التواصل الاجتماعي عن ثقافتها، فقالت:

> "ثقافتي يا سيدي هي من تراكمات ثقافية منذ نشأتي وطفولتي، ثقافتي تجربة معاشة في ظل الاحتلال، ومعايشة ما كان يحدث على أرضنا، ثقافتي تجربة معاشة من قضيتي وحرص على تنمية الوعي العروبي وقوميتي العربية، واعتزازي بأصولنا ولغتنا، ثقافتي مزيج من حضارات من خلال قراءتي في تاريخ الحضارات، وأحمل ما أنتمي إليه، تاريخ كنعان والتي هي فلسطين".(٢)

من الأعمال الأدبية للكاتبة:

تقول بشرى محمد أبو شرار: "أصدرت أربع مجموعات قصصية في البداية، وبدأت أشق طريقي في فن الرواية، حيث تعد من باكورة أعمالي: "أعواد الثقاب"، وأثناء مسيرتي الأدبية كنت أنتمي إلى عالم الرواية بكل وجداني، وقد أصدرت أكثر من ثماني مجاميع قصصية، وعشرة أعمال روائية.

أولاً– المجموعات القصصية:

- أنين المأسورين.
- القلادة.
- جبل النار.
- اقتلاع.
- حبات البرتقال: صدرت من اتحاد كتاب كتاب مصر ٢٠١٢م.
- من يوميات الحزن العادي: إصدار مجلة الرافد ٢٠١٠م.

ثانياً– الرواية:

- أعواد الثقاب: ندوة الاثنين ٢٠٠٣م.
- شهب من وادي رم: إصدار ندوة الاثنين ٢٠٠٥م، وطبعت طبعة ثانية عن دار الهلال ٢٠١٢م.
- من هنا وهناك: ندوة الاثنين ٢٠٠٦م، وطبعت طبعة ثانية عن دار الهلال ٢٠١٤م.
- شمس: صدرت عن الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٨م.
- أنشودة شمس: صدرت من فرع ثقافة الإسكندرية إقليم وسط وغرب الدلتا. ٢٠٠٩م.
- حنين: سلسلة الكتاب الفضي إصدارات نادي القصة ٢٠١٠م.
- قمر في الظهيرة: صدرت عن دار الهلال ٢٠١٠م.
- دورا: صدرت عن دار الهلال ٢٠١٣م.
- العربة الرمادية: صدرت عن دار الهلال ٢٠١٥م.

النشاط العملي للكاتبة:

تحمل الكاتبة بشرى أبو شرار عضوية عدد من النوادي والمجالس الأدبية، منها:

- عضو في اتحاد كتاب مصر.
- عضو في نادي القصة.
- عضو في مجلس إدارة نادي القصة في القاهرة.
- بالإضافة إلى عضويتها في اتحاد كتاب فلسطين.

الجوائز التي حصلت عليها:

حصلت الروائية بشرى محمد أبو شرار على عدة جوائز عن أعمالها الأدبية، منها:

- جائزة إحسان عبد القدوس في القصة القصيرة برج العرب.
- المركز الأول في مجموعة قصصية حبات البرتقال مؤتمر الدكتور محمد زكي العشماوي.
- المركز الأول في مؤتمر العشماوي عن رواية حنين المخطوطة ٢٠٠٩م.
- فازت بجائزة الجمهورية عن روايتها شمس الصادرة عن الهيئة العامة للكتاب ٢٠٠٩م.

❖ المبحث الثاني: الوطن وماهيته:

يمكن تعريف كلمة الوطن لغةً – كما أجمع علماء اللغة العربية – بأنّه: المنزل الذي يُقيم فيه الإنسان، والفعل منها: أوطن، أي: اتخذها محلاً ومسكناً يقيم فيه، واسم المكان من الفعل أوطن: موْطِن، وقد عرّف الإمام الزبيديُّ كلمة الوطن بأنّها: منزل الإقامة من الإنسان ومحلّه، وجمع كلمة وطن: أوطان[٣]، كما تستخدم كلمة الوطن للحديث والتعبير عن أماكن عيش الحيوانات والطيور، فكل ما كان حياً له موطنه على الأرض، ولكن يبقى الوطن الذي يعيش فيه الإنسان له معنى مختلفٌ يتميّز عن باقي الأوطان الأخرى جميعها.

ولقد عرّف الإمام الجرجاني[٤] الوطن اصطلاحاً بأنّه: المكان الذي وُلِد فيه الإنسان ونشأ فيه، ويتشابه هذا المعنى في التعريف بالمعنى اللغوي، ولكنّ مفهوم الوطن بالمعنى الحاليّ كما يعلمه المواطن: هو البلد الذي يسكنه المرء، ويرتبط به، وينتمي إليه، ويحصل على الجنسيّة منه، أي أنّ مفهوم الوطن بدأ من المنزل، ثمّ الحيّ، وتوسّع حتى شمل المدينة، وتوسعت الرقعة حتى أصبح داخل حدودٍ جغرافيّة مرسومة على الأرض وعلى الخريطة.

وإذا نظرنا إلى دلالة مفهوم الوطن، في بعض اللغات الأجنبية ذات الأصل الإغريقي واللاتيني؛ فكلمة patris الإغريقية، والتي تعني بلد الآباء، هي أصل كلمة patrie بالفرنسية التي تحمل المعنى نفسه، ومرادفاتها في الألمانية vaterland أو father land و birthplace في الإنجليزية، ولو قمنا بمقارنة سريعة للدلالة اللغوية لمفهوم الوطن بين اللغة العربية وهذه اللغات؛ لوجدنا أن مفهوم الوطن في العربية أكثر مرونة وفردية وشخصية، في علاقة المرء مع المكان الذي ليس ثابتًا هنا، وإنما قابل للتغيير والانتقال والسفر، فهو ليس فقط منزل المرء ولكنه أيضًا المكان الذي يحلُّ فيه الإنسان، وهذا يعني أنه لا يرتبط بمكان الولادة ومسقط الرأس، وإنما يغدو الوطن أوطانًا تتعدد مع تعدد أماكن الترحال والسفر.

بعد النظر فيما سبق يتضح لنا أن الوطن هو المكان الذي يطمئن إليه الإنسان جسديا وروحيا.

❖ المبحث الثالث: مفهوم الحنين إلى الوطن:

الحنين إلى الوطن قديم قدم الأوطان نفسها، حيث عبر عنه كثير من الأدباء بطرق مختلفة، مرة في الشعر، فقد عُرف في العصر الجاهلي العربي بالوقوف على الأطلال والذكرى حيث كان العرب حينئذ لم يكونوا مستقرين في بلدانهم وأماكن معيشتهم، بل كانوا يتناقلون بين فترة وأخرى من مكان إلى آخر، وهكذا الشعراء يذكرون بلدانهم في شعرهم كأبي القاسم الشابي الذي عرف في العصر الحديث بأكثر الشعراء الذين أنشدوا حنيناً إلى الوطن، وفي النثر يتخذ الحنين إلى الوطن شكل الخاطرة أو القصة القصيرة أو الرواية، وتعد رواية "دورا" التي كتبتها بشرى محمد أبو شرار من هذا النوع.

الحنين إلى الوطن أو ما يسمى بالغربة تُطلق عليه في اللغة الانجليزية كلمة Homesickness وهي حالة نفسية تصيب الشخص الذي يغادر وطنه أو عائلته لمدة من الزمن.

فالحنين هو: الشَّوْقُ، وشِدَّةُ البُكاءِ، والطَّرَبُ، أو صَوْتُ الطَّرَبِ عن حُزْنٍ أو فَرَحٍ.(٥)

حَنَّ يَحِنُّ حَنيناً: اسْتَطْرَبَ، فهو حانٌّ، كاسْتَحَنَّ وتَحانَّ.

وبعد أن رجعنا إلى جذر الكلمة، وجدنا أن الفعل الثلاثي "حنن" طرأ عليه التضعيف – لغير زيادة – فصار "حن" وتصريفه حنَّ، يحنُّ، حنيناً.

وقد جاء في " لسان العرب ": بمعنى حنن: الحنان من أسماء الله الحسنى.(٦)

والحنين هو توقان النفس والشوق، وقد (حن) إليه يحِن – بالكسر – حنينا فهو حانٌّ، والحنان، ومنه قوله تعالى": ﴿وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا﴾.(٧)

وقولنا حنّت الإبل: نزعت إلى أوطانها أو أولادها، والناقة تحنّ في إثر ولدها حنينا، فالحنين معناه: الشوق وتوقان النفس مع الطرب والتنغيم، وهو يكشف عن مدى معاناة المغترب بعيدا عن وطنه.

والحنين من المشاعر النبيلة الإنسانية التي تهز كيان الإنسان، فهو عاطفة تشد الفرد إلى أهله مهما ابتعد المكان، وطال الزمان واستحال اللقاء بعد الفراق.

وفي علم النفس، يُعتقد أن الشعور بالحنين إلى الماضي أو الشعور بالغربة يمكن أن يكون له آثار إيجابية، مثل: التسبب في الشعور بمعرفة المرء لنفسه بأنه محبوب. على الرغم من أنه مرتبط بالشعور بالحزن أو الكرب والاكتئاب، إلا أنه يُنظر إليه في كثير من الحالات على أنه شعور يسبب الرفاهية في ذاكرة تجربة أو مكان أو شخص، وهذا الشعور يعيد الشخص بطريقة ما إلى ما يتوق إليه.

وهكذا ظل الحنين إلى الوطن ملازما للبشر، فما زالوا يسافرون لحوائجهم من بلد لآخر، غير أن السفر إن كان برضى النفس فلا يكون شاقا على الإنسان، كالسفر للتعليم أو التجارة، أما إن كان جبراً فلا يوجد دواء يشفي أنين القلب في الحنين إلى الوطن، ولا شك أن إجبار الإنسان على السفر بسبب الفقر أو الحرب أو نحوه يجلب له الصعوبة، ولكنه في النهاية يخلق فيه نفسه حنينا يكون سببا في الإبداعات العديدة، وكفى مثلا أن يكون مثيراً لمشاعر الأديب سواء أكان شاعراً أو كاتباً قصصياً أو روائياً، فالذي واجهته الكاتبة والروائية بشرى محمد أبو شرار في بلدها فلسطين كان أحرى بها أن تفيض مشاعرها في الكتابة في الحنين إلى الوطن، وذكرى الأمن والسلام الوطني. فالرواية التي نتناولها في هذا البحث ما هي إلا مشاعر ألم وغربة وعشق وحنين إلى الوطن.

❖ المبحث الرابع: الكاتبة والحنين إلى الوطن:

إن النظرة الممعنة في روايات بشرى أبو شرار لكفيلة بأن نقول: إن بشرى محمد أبو شرار تحدثت في أولى رواياتها: "أعواد الثقاب": عن الوطن والمهجر والبعد عن الوطن، وترتكز الرواية على كثير من حياة الكاتبة وما مرت به من معاناة وقت الدراسة وأيضا فيما تمر به فلسطين.

وفي روايتها: "من هنا وهناك"، أصرت على وصف المعاناة التي يلقاها الشعب الفلسطيني من مشاكل وحروب، فتضمنت الرواية كمّاً كبيراً من المشاكل التي يواجهها الشعب الفلسطيني في حياته اليومية، واستعانت في روايتها بكثير من الشخصيات الحقيقية في فلسطين.

وفي روايتها: "شهب من وادي رم" تضمنت الحب الصارخ للوطن الفلسطيني، واستخدمت النثر والشعر في الرواية. وأيضا كتبت بشرى رواية اسمها: "شمس"، وبطلتها أيضا اسمها "شمس" والتي كانت تشعر بأنها طفلة بلا مكان، ولا أحد يهتم بها، ولا تجد محال لملابس الأطفال واحتياجاتهم في غزة، فالطفل لم يكن في دائرة الضوء أساسا، ومن هنا شكلت «شمس» عالمها بعيدا عن دائرة الضوء. ثم نشرت بشرى أبو شرار بعد ذلك روايتي: "حنين" و"قمر في الظهيرة"، وأيضا كتبت رواية: "العربة الرمادية"، والتي وصفت فيها بشرى السنوات التي ضاعت من حياتها، والحنين إلى الوطن الدائم، والوطن المسلوب بغير إرادة. وفي روايتها: "دورا"، تحدثت بشرى عن العشق والحنين بشكل عام ما بين الوطن والرومانسية.

وفي أحدث رواياتها: "رسائل الكرز"، تدور الكاتبة بشرى في الرواية بين سوريا وفلسطين وبغداد وصنعاء، راصدةً الصراعات هناك، والنزاعات الناتجة عن الطائفية، والأطماع السياسية وضحاياها اليومية من الشباب والأطفال.

❖ المبحث الخامس: الحنين إلى فلسطين:

القدس وفلسطين يحنّ إليها قلب كل مسلم شوقا، وتدمع عين كل سامع عنها، وشاهد على آلامها، فما بال من كان يسكنها وطُرد منها ونزع منه بيته ومتاعه؟! يحمل الألم والأمل وينتظر العودة بفارغ الصبر، مؤكدًا أنه لم يفقد أي أحدٍ من أهله وأقربائه الذين فارقهم بسبب ما حلّ بفلسطين، يتشوق إلى الوطن والعودة رغم قسوة الواقع وقذارة الحاضر وضبابية المستقبل.

فالفلسطينيون كانوا قد طُردوا من بلادهم ومسقط رأسهم، وإن كانت أجسادهم خارج فلسطين ولكن قلوبهم فيها وأرواحهم تعانق القبة المذهبة المقدسة، حلمهم بسيط في نفوسهم ثقيل على الواقع، لكنهم يرونه قريبًا أكثر من أي وقت مضى، بأنهم سيعودون آمنين إلى بلدهم مطمئنين لا يخافون العدو.

فحنين الفلسطيني لوطنه لا يُوصف، بل ولن تجد فلسطينياً واحداً لا يتذكر بلده فلسطين وبلدته التي يعود أصله إليها، بل حنين المسلمين إليها لا يُوصف، فنجد كل مسلمٍ

تقريباً دائم التحدث عن فلسطين ليل نهار، ويستغل كل مناسبةٍ ليجعل اسم فلسطين عالياً ويسعى جاهداً ليزور وطنه فلسطين.

ففلسطين ليست مجرد ذكرى، بل تسكن عقل وقلب كل فلسطيني يعيش خارج أسوارها، ويغذي اللاجئين في الخارج حنينهم، كلما اشتعل شوقهم لفلسطين، فلا يتوانَون بكل الوسائل وفي كل مناسبة أن يحلّقوا باسم فلسطين عاليا، ولذلك تجدهم يُحيُون المناسبات والتواريخ المهمة التي مرت بها القضية الفلسطينية، ويقيمون المؤتمرات. وإنّ تمسّكَ الشعب الفلسطيني بحق العودة والحنين إلى الوطن مهما طال الزمن أو قصر، سيحقق الحلم بالعودة القريبة بفعل صمودهم في فلسطين ومخيمات الشتات، وصبرهم وعزمهم؛ لأن كل فلسطيني من حقه الشرعي والقانوني أن يعود إلى أرضه وأرض أجداده، بل وحق كل إنسان أن يعيش في أرضه التي فتح عينيه فيها بكل راحة لا يجانبه خوف الطرد والخروج.

فالوقائع التي شهدتها أرض فلسطين وما يحمله أهلها في قلوبهم أفاض مشاعر الكاتبة والروائية والأديبة المجيدة؛ فكانت موضوعات رواياتها وأحداثها ووقائعها لم تكن اختيارية بل كانت حتمية، لم تكن لها إرادة ورأي فيها؛ لأن ما رسمته لنا في الروايات كان من طقوسها اليومية ومواقيتها التي كانت تعيشها، لأن الوطن والإبداع صنوان لا يمكن الفصل بينهما كما ذكرت بشرى بنفسها، وإن أقل ما يمكن للمواطن المبدع إظهار إبداعه في الحديث عن وطنه وإن كان شريداً، هو أن يكون الحنين إلى الوطن ثائراً على جميع أعماله الأدبية.

❖ المبحث السادس: الحنين إلى الوطن في رواية "دورا":

كلمات بشرى في رواية: "دورا" كلمات مستوحية من أنين الواقع: "عابرون في كلام عابر"[٨] جملة تعبر عن أنين أهل فلسطين وما يمر عليهم عند ذكرى فلسطين، أو السماع عنها، يعبر أمامهم جميع تلك الأحداث والوقائع التي مروا بها، بل الأحداث التي مرت بها بشرى شخصيا قد ذكرتها في روايتها: "قمر في الظهيرة"، فكانت روايتها هذه صورة قصة حياتها، وقد بينت في أحد اللقاءات عندما سُئلت: كيف كان سفرها ومسيرتها من فلسطين إلى الإسكندرية؟ فأجابت:

"ما بين حكايات الحب والحرب، غربة واغتراب، من فلسطين حملت براعم الحب وعلى ترابها عشت مواقيت الحرب، حين أشاهد يوميّات المعارك التي تحيط بمنطقتنا تتداعى ذكريات الحرب. ومسميات لا تسقطها الذاكرة حرب الأيام الستة وأنا من طفولتي أكاد أراها عمراً بأكمله؛ لأن دقائق الحرب كانت في عمر سنوات طويلة. من ينسى حكايات الحرب وتداعياتها، منع تجوال، مداهمات وخوف يحاصرنا، في فلسطين التحصيل العلمي كان هاجس كل بيت، الجميع ينتظر الالتحاق بالجامعات، وأنا بدأ مشواري والغربة والرحيل عن أرض الوطن في أولى خطواتي للالتحاق بالجامعة، من فلسطين إلى الإسكندرية وما بينهما مشوار طويل، فقدان وحبّ وألم. من ملامح غربتي واغترابي وجدت عالماً موازياً التصقت به وكانت له بداياته في وطني منذ الطفولة وريعان الصبا. من القراءة كنت أجد ألف ألف حياة قد أستعيد منها بعضاً مني، وأرمم ما تهاوى وألملم ما تبعثر، صار عالمي عالم كتب وقراءة وكتابة... كم يخاف أن تُطوى صفحات من تاريخنا.. كم يخاف؟!".[٩]

لحظات الدهشة التي توضحها الرواية لحظات هاربة تطاردها الكاتبة من أجل أن تلتحق ببعضها كي تحفظها في الذاكرة، فكم تخاف أن تطوى صفحات من التاريخ.

"بلدتي جبلية، تستلقي هادئة على كتف جبل يتلحف دوما بخضرة رائعة، مبعثها أشجار الزيتون الرومي القديم، وخضرة أشد روعة تأتي مع أنفاس الربيع الهادئة لتتحول إلى صفرة براقة تفرش الحقول مع حلول كل صيف، في عصر كل يوم".

وصف دقيق وتعبير رائع عن بلدة "دورا"[١٠] وهي المدينة التي كانت تسكنها بشرى في صغرها، والكاتبة لم تكن موجودة فيها حين وصفتها وكتبت عنها، مما يبين أنها تتذكرها بكل تفاصيلها بيومها وليلها، بصباحها ومسائها، بلدة نقش فيها بكبيره وصغيره، زمانه يمر عليها بدقائقه وثوانيه.

"أعرف مدينتي تُطِلُّ من رحم الأفق، وقد تلونت بالأزرق، شبابيكها مشرعة على حكايتي، بيوتها تلونت من تراب الأرض، هل ما زالت تحفظ مكان يديّ عليها، كنتُ أمررها أتلمسُ الدفء فيها، وكأن الغد كان متربصاً بي ليلقيني بعيداً. هو صوت الروائية حينما تعلنُ فلسطينها كاملةً بأزمنتها في جداريتها المضرجة بالفرح والوجع، واللون والحبر، واللوحات والمشهديات المتسعة الرؤيا، وما لذلك من وشائج بتأسيس المكان المحلوم به، لكي يكون صورةً للعائدين أكبر من حلم وأقلّ من غياب".

بشرى محمد أبو شرار وجدارياتها تكحّل عيون الحبر، ويضبطُ القلبُ نبضه على إيقاع الحياة الشوقية الصامدة في الحرب عليها، وتصبحُ الأسماءُ كوشمٍ نُقشَ على ذاكرة الإنسان وهي تدوّن إيقاع تلك الحيوات الضاجّة بالحياة – تبثُّ وعيها بالنصر، وتحتفي بالأمكنة، وتحتفل بالحلم، وتستأنفُ مشروعها، وتكملها في صوغ المقاومة إبداعاً يخطّه المقاومون المرضى والجرحى والشهداء الأكثر جدارة بالحياة، رواية "دورا" كثيرة الشجن والاحتفاء، وتعبيرات الوجدان الجمعي الذي تصوغه الكاتبة بشرى أبو شرار بنقاء وصفاء وطني، وحرارة تعبير ملهمين، يرتقيان بالأفعال وبخزان مليءٍ من ذكريات وآلام وتدوير للحكايات، وعودة منها إلى النبع المصفى، هي فضاءات بشر، وأزمنة لا تتكرر، برمزياتها ودقائق محكياتها، وشرحها إذ يطول حتى يطال أعمار من ظلوا هنا هناك. كيف لا؟! وهي الكاتبة العربية ووعيها لا يقفُ عند مأساتها الفلسطينية فحسب، بل سيتجاوز إلى استشراف مستقبل باهر، لتكون الرواية موقفاً أكثر منه رؤيا من العالم.. استشرافٌ يفيضُ بمن وعى التجربة وعلم، وذهبَ إلى الزمن التاريخي ليقفَ عنده بذاتِ الرؤيا حينما تترجمها أفعالٌ روائيةٌ بتواتر علاماتها وضبطها وماهياتها .

تستعيد بشرى أبو شرار سيرة الأهل وسيرة المكان، لتبثّ صوتها الخاص المميز في عالم الإبداع، بحثاً عمّا يعادل الفقد والحنين والغربة وغيرها من مشتقات المجال العاطفي، لكنه المجال الأكثر خصباً لالتقاط الأدوات الروائية، وهي بدأتْ من القصة، تكتبُ إذن لتروي، وفي روايتها جدليةُ الراوي والمروي عنه على نحوٍ جعلَ من أعمالها الأولى، واللاحقة ميداناً خصباً لتأويل الحكاية الفلسطينية ورموزها وأبطالها، لكي تبدو كمن يدوّن أساطير مشتهاةً، لها نسبٌ من الواقع، ولها بالوقت ذاته وفرةٌ من سعة التخييل؛ لتكون المعادلة في التقاط مفردات الوطن، هي نسجُ حيوات متجاورة لن يكون الأهل وحدهم فحسب، بل ثمة ما يذهب بنا إلى حفريات بعينها في الذاكرة القريبة والبعيدة، تستعيدها كحاضرة كما في روايتها، فالمكان والأهل والأصدقاء –فضلاً عن دلالات– تربطُ الحاضر بالماضي وتفردُ للمعاناة صوراً كثيفة وعظيمة، وبعينها كروائية سوف لا تكتفي في "دورا" ومحكياتها، بل لغتها الدرامية التي تنوّع فيها بكل ما امتلكت من تقنيات، والأدلّ في هذا السياق هو السعي للمماهاة ما بين الوثيقة والواقع والحاضر، وأكثر من ذلك تلك «البيلوغرافيا» التي تعرّف بماهيتها الإنسانية، التي كانت صدى لمراحل حياتية عاشتها.

وتذكر بشرى في حواراتها أنها تستمد تفاصيل جميع الأعمال الروائية التي تقوم بكتابتها من ذاتها ومن واقعها التي عاشته في ضجة حياتها، وإن الرواية بالنسبة إليها بمثابة أدراج الخزينة التي يحمل كل درج منها مغاليقه وأسراره وحكايته، وأنها تقدم رواياتها من واقع عذاباتها ومن واقع حالات أنهكت قواها على حد تعبيرها.

وتقول أيضا إن الكاتب مخلوق من مشاعر وإحساس وخواطر مرهفة، لذلك فهو يكتب من رحم الوجع والألم والحزن الذي يتعرض له في حياته، وليس من قلعة عجيبة عاجيّة له، يعيش فيها بمفرده.

> "إن الذاكرة سر يسكن داخل كل شخص منا، سواء كان شخصا عاديا أو مبدعا، ومن خلال هذا السر تتكون ملامحنا، وهو السر الذي يلون الدم في عروقنا، حيث تكون هذه الذكريات في بعض الأحيان شبحا يطارد كلّا منا، ولكننا نحاول أن نهرب منه. كما تؤكد

على أن من بين هذه الذكريات ما يؤلم روحنا، ومن بينها في نفس الوقت ما تشرق به ذواتنا. لافتة إلى أن حكايتها مع الكتابة من روح ذاكرة المكان، شخوص من زمن يمضي ويذوي نوره".(١١)

وتضيف أنها حين كانت تواجَه بالسؤال: لمَ لا تكتبين عن حالة عشق تمتّعيننا بها! لمَ هذا الغرق في الهم الفلسطيني؟!، كانت إجابتها تخرج بتلقائية ويقين يسكنها ولن يغادر:

"هل عادت فلسطين؟! هل عاد كلُّ غريب لداره؟! هل استعدنا مدننا السليبة؟! شهداء المقاومة هل توسّدوا الفرح؟!". وتواصل بثقة: "كيف لفلسطين أن تغادرني وأنا المتجذرة في ترابها؟!.. الفن والجمال والإبداع تسكن ملاحم البطولة وروح المقاومة العنيدة التي لا تحيد ولا تهادن ولا تساوم .. هي الحرف الذي أستمد منه هويتي الفلسطينية العروبية، سيظل الحرف يسكن أبجديتي وأبجدية المقاومة".(١٢)

❖ الخاتمة:

تعطينا بشرى أبو شرار من خلال كتاباتها تجربةً إبداعيةً وإنسانيةً ظلّت تواسي معاناة التمزّق بين عالمين، عالم الوطن (فلسطين) وعالم المهجر (مصر)، لكنها وهي المحمولة والمجبرة على دلالة الاغتراب والهجرة أدركتْ أن المقابل له –الاغتراب– هو الإبداع والجمال الفني الذي تستنطقه الذاتُ في سرديات مختلفة، وتتنوعُ علاماتها ليس بحيازة الاسم فحسب، بل بقلق التجربة وإشراقاتها في معنى يجعل الإنسان من اللغة وطناً بذاته، فكيف به إذا كان مبدعاً؟!

الهوامش والمصادر:

(١)- حوار صحفي مع الأديبة بشرى أبو شرار.

(٢)- محادثة بين الباحثة والكاتبة، المصدر السابق.

(٣)- الزبيدي، محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني: تاج العروس من جواهر القاموس، دار الهداية للمطبوع، نسخة المكتبة الشاملة.

(٤)- الجرجاني، على بن محمد بن علي الزين الشريف: كتاب التعريفات، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، نسخة المكتبة الشاملة.

(٥)- الفيروزآبادي، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب: القاموس المحيط، تحقيق : محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع بيروت لبنان، ط/٨. باب النون فصل الحاء.

(٦)- ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي جمال الدين الأنصاري: لسان العرب، دار صادر – بيروت، ط/٣، ١٥/ .

(٧)- سورة مريم، الآية: ١٤.

(٨)- أبو شرار، بشرى محمد: دورا، دار الهلال، ٢٠١٣م، ص: ٥.

(٩)- المرجع السابق.

(١٠)– دورا هي مدينة فلسطينية، ومركز منطقة دورا. تقع في الضفة الغربية التابعة للسلطة الفلسطينية ضمن محافظة الخليل ويبعد مركزها عن وسط الخليل سبعة كيلومترات ورغم ذلك فهي متصلة عمرانياً بمدينة الخليل منذ نهاية التسعينيات عبر قرية سنجر، نظرا لموقعها الجبلي فيختلف ارتفاعها بين كل منطقة والاخرى لكن النسبة الوسطية هي ٨٩٨ م عن سطح البحر. بلغ عدد سكانها حوالي ٤٢٠٠٠ نسمة حسب إحصاء ٢٠٢٠م.

(١١)– الروائية بشرى أبو شرار: الشللية تتحكم بالنشر لا المعايير الأدبية، متاح على الموقع التالي:

https://www.wattan.net/ar/news/224792.html

(١٢)– الروائية الفلسطينية بشرى أبو شرار: الكتابة ليست نزهة .. والرواية رحلة جبلية صعبة الإنسان إرثُه الحقيقي تاريخٌ يُروى كتابةً أو نقشاً، لأن هذا هو الرصيد الباقي لنا بعد التزييف والتغييب الذي يحيطنا ويترصد بنا. متاح على الموقع التالي:

https://alwatan.com/details/134199

(***References***)

- *Al-Ǧurǧānī: Al-Taʿrīfāt.*
- *Al-Zubaīdī: Tāǧ Al-ʿrūs.*
- *Al-Fīrūzʾābādī: Al-Qāmūs Al-Mḥīṭ.*
- *Ibnu Manẓūr Al-ʾānṣārī: Lisānu Al-ʿarab.*
- *Sūraẗ Marīam, V: 14.*
- *Abū Šrār, Bušra Muḥamad: Dūrā, Dar Ul Hilal, 2013.*
- *https://www.wattan.net/ar/news/224792.html*
- *https://alwatan.com/details/134199*